

تماهي النص بالايقونة

نموذج اسماعيل شموط وعسان كنفاني

لك ان تتصور دهشة فتاة في عمر السداجة والمراهقة حين يتسنى لها دخول صومعة فنان احبته وزينت جدران غرفتها برسوماته حيث كانت √ عروسان على الحدود √ آخر ما تنطبق عليه عيناها و √ فلسطين على الصليب √ أول ما تنفتحان عليه. كان ذلك ايام كان العمل الفلسطيني لا يزال سرياً حيث ضمني والفنانة تمام شموط خلية واحدة. كنت يومها أتخيل صاحب هذه الرسوم شيخاً جليلاً بلحية منقوشة و غليون عابق لا ينطفئ ونظرة متعالية ترمق من مقعدها الوثير الواقع وترسمه على مزاجها، إلا انني صدمت عندما رأيت اسماعيل بجسده النحيل، يومها، وتواضعه الذي لا تصنع فيه ونظرته الخجولة، و صدمت أكثر عندما جاء يقدم لرفيقات زوجته القهوة بيديه التي كنت أظن انهما لا تصلحان إلا لحمل الريشة والالوان. انكشيت خجلاً وكدت أدوب في مقعدي، ملت نحو أمي الروحية الادبية سميرة عزام متسائلة بسداجة: اهذا هو اسماعيل شموط صاحب عروسان على الحدود وفلسطين على الصليب؟ ظلت سميرة متكئة على عصاها واكتفت بهز رأسها إيجاباً. لست أدري لماذا يومها تراءت لي صورة يسوع الناصري وهو يغسل أقدام تلاميذه في خميس الاسرار.

لا ادعي انني قارئة لوحات موهوبة. وأشعر بالاحراج في كثير من الاحيان عندما يدور الحديث حول فنية هذه اللوحة او تلك، إلا انني أمام لوحات اسماعيل أشعر بالارتياح، فهي عندي كتاب أو قصيدة تقرأ بعيداً عن فذلكات المتأولين، وقد تعلمت فيما بعد ان انتقف على قراءة اسماعيل شموط تماماً كما كنت أنتقف على مقالات عسان كنفاني وشفيق الحوت. ما ان أقف أمام لوحة حتى تأخذني الى رواية او قصة قرأتها لعسان او سميرة أو مقالة لشفيق. واذ وقفت أول مرة أمام لوحة √ الربيع الذي كان √ حضرني واضحاً قوياً نص سميرة عزام في √ وجدانيات فلسطينية √ فقد كانت اللوحة هازجة بليغة مؤثرة تأثير النص المكتوب إن لم يكن أكثر. ولطالما جاب في خيالي أطفال كنفاني، من بائع الكعك حميد، الى طفل المنزلق، الى أطفال زمن الاشتباك، في الكثير من أعمال شموط كمثل: أطفال مخيم الدهيشة √، √ وهم أيضاً أطفال √ أو √ الكمين √. واذ اقول في الكثير فلأن اطفال شموط اقرب الى المفهوم العالمي الكلاسيكي للطفولة: البراءة، الضعف، الاستغلال، والشقاوة البريئة. في حين كان أطفال كنفاني رجالاً كباراً قبل الاوان، فيهم الكذاب (كعك على الرصيف) والمحتال على معاشه (زمن الاشتباك) والثوري الذي يتفوق على الكبار في صموده وشموخه (كان يوم ذاك طفلاً) والمبدع الخلاق صاحب الرؤيا (المنزلق)

وإذ أن المجال لا يتسع الى استعراض جميع هذه المواقف أو تناول جميع أعمال الفنان وهي كثيرة فساكتني بنماذج ثلاث عليها تفي بالغرض

بين قصة √ العروس √ و لوحة √ القييد √

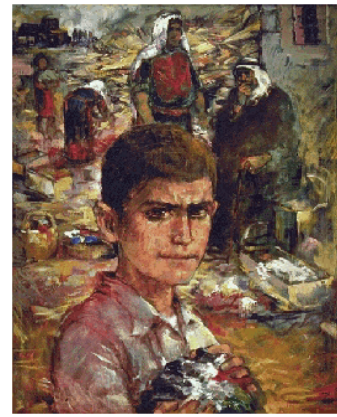


يتماهى هذان العملان في رؤية واحدة تهدف الى تصوير ما في الشخصية الفلسطينية من عزم وثبات واصرار على المواجهة رغم كل ما في هذه المواجهة من عدم تكافؤ ولامعقولية التي هي على حد تعبير الباحث سامي

اليوسف بطولة ترعش بالمأساة. رعشة المأساة هذه نحسها في اصرار صاحب √العروس√ على البحث عن بندقيته رغم كل المعوقات التي اعترضته. تابعها وجرى وراءها من معركة الى معركة ومن قرية الى قرية. من الدامون الى شعب الى ترشبحا الى غيرها....متحديا كل ما لخصمه عليه من تفوق ولم يبأس حتى بعد سقوط كل فلسطين. وهي الرعشة ذاتها في لوحة شموط؛ يقول بها هذا التحفز في وقفة الشاب والعضلات المتوتبة رغم القيود التي تسربل اليدين والرجلين. الخطوة الواسعة التي كأنها لا تعترف بالقيود وتصر على متابعة المسير. الصدر المنفوخ كبرياء والرأس الذي يرفض أن ينحني والذي برفضه هذا يتغلب على قيوده، والشمس المشرقة التي تنير الوجه فكأنها تهزأ بالواقع وتنبئ بتغييره. وقد تماهى النص بالقصة حتى لجهة الصفات الجسدية للبطلين، فصاحب العروس: رجل طويل جداً، صلب جداً، يسير محنياً بعض الشيء يكفين مفتوحتين متحفزتين وله عينان تنقبان وجوه الناس كأنهما محراثين عتيقين....كان محاطاً بما يشبه الضوء. كان محاطاً بشيء يشبه الغبار المضيء كما رسمه فنانون عصر النهضة حول جسد الاله وهو يقدم عونه للفقراء. نظرة ولو عابرة تجعلنا نرى ان ما في صفات بطل اللوحة يطابق ما رسمته كلمات الاقصوصة فهو ايضا يحمل صفات إله يوناني. إله الخصب، ربما، لما في ملامحه من فحولة، او الإله سيزيف الذي حمل صخره قدراً لا مناص للهروب منه

رغم كل ما في العمليين من تمامه، إلا ان المتعة التي يحدثها احدهما عند التلقي لا تغني عن الاخر ولا تلغيه، فان كان النص متعة للخيال فاللوحة متعة للعين ودعوة للخيال ليخلق ويستمتع وينسج على هواه الف معنى ومعنى

√ما تبقى لكم√ و √هذا ما بقي√



رغم تقارب العنوان في كلا الرواية واللوحة إلا ان كل منهما تلتزم برؤية مختلفة. اقرأ في اللوحة، وهو اجتهاد شخصي بحث، قد يخطئ وقد يصيب، ملاح غير واضحة، لا تقول صراحة بالغضب او الحيات او الحيرة ورغم ان نظرة العينين وإطباق الشفتين الى الداخل تحيل الى غضب مبهم، ولكنه ليس الغضب الفاعل، فهو إن وجد يبقى غضباً هجيناً، لم يتقلت بعد من مرحلة الذهول والانتظار. قد توحى الشفتان المزموتان عزمًا ما ولكنه عزم غير واضح، فقد غابت عن اللوحة دلائل العزم واتخاذ القرار كأن تكون العينين تتجهان بنظرتهم الى البعيد، أو انحناء الجسم الى الامام او اظهار توتر في وضع الذراعين يشي بالانفعال. أما أن تكون اليدين مضموتين على الشكل الذي هما عليه فانما هو احياء بالرضوخ والطاعة لذا تراني أقرأ في اللوحة مجرد عرض حالة، تسجيل موقف، ولك كمتلقي ان تستشف ما وراء هذا الموقف، فخلقية اللوحة تعرض الخسارات ومقدمها يعرض √ما تبقى√ هذا الوجه المفتوح على كل الاحتمالات التي لم يشأ الفنان أن يحصرها بواحدة فترك الخيار للمستقبل ليقول كلمته. وهذا برأي المتواضع، إعلاء لقيمة اللوحة الفنية، فهي لا تفرض نفسها ورؤية صاحبها، ولا تنتصب واعظة مباشرة، ولا هي داعية في المحافل الساسية. هي حسب مقولات النقد الادبي، لوحة مفتوحة النهايات، وسؤالها يحتمل عدة اجابات. هي حالة فنية راقية تطلق العنان للذهن ليس فقط في طرح الاسئلة بل في الاجابة عنها أيضاً

أما حامد، بطل كنفاني في √ما تبقى لكم√، فقد صهرته المرارة، أوصلته الخسارات (خسارة يافا وامه وابيه وشرف اخته) الى حزم امره بعد طول تردد. فأخذ قراره برفض اللجوء والمنفى المتمثلين بالمخيم والتوجه نحو الوطن، جاهزاً لكل ما يستلزمه هذا التوجه من تضحيات. ولأن مجال النص أوسع من مجال اللوحة فقد تمكن

الكاتب ان يرسم لحامد شخصية متطورة يزيد عليها او ينقص منها تطور الحدث. فنتعرف على حامد الضعيف العاجز طفلاً والغاضب الناقم على عجزه يافعاً ثم الشاب الذي انضجته المأساة فعرف طريق خلاصه: واخذ يغوص في الليل مثل كرة من خيوط الصوف مربوط اولها الى بيته في غزة، طوال ستة عشر عاما لفوا فوقه خيطان الصوف حتى تحول الى كرة وهو الان يفكها تاركا نفسه يتدحرج في الليل. ثم نراه خاشعاً أمام خطورة الخطوة التي اتخذها √وقف فجأة. نظر الى السماء فجأة ثم الى ساعته وعرفت الصحراء أنه يفكر مثلهم كلهم . . ولكنه مثلهم كلهم خاف من الانبساط الى ما لا نهاية . . . ثم نراه يتخطى هذه الرهبة فيسير فجأة، شاباً كما كان دائما مملوءاً بالغیظ والاختناق والحزن. الى ان ينتهي ممثلناً ثقة بالنفس عند اول مواجهة له مع العدو فقد كشفت له هذه المواجهة مكامن القوة التي كانت غائبة عنه: √كنت مسلحاً بقدرتي على مفاجأته فقط...وفي اللحظة التي امسكت بها عضديه بكفي وانا اضغط جسدي فوقه، تيقنت انني اقوى منه√. الى أن انتهى وقد وضحت رؤيته ووثقت خطوته وصار بوسعه ان ينظر مباشرة الى قرص الشمس معلقا على سطح الافق

أرض البرتقال الحزين وأوديسة الشتات) الى المجهول)



في هذه اللوحة التي تحمل عنوان √الى المجهول√ وقصة √أرض البرتقال الحزين√ تكامل لا يخفى على عين. فالنظرات الذاهلة التي ترسم في عيون الطفلين اللذين على يسار الرسم، ليس إلا رسم بالالوان لما قالته الرواية بالكلمات: مجرد أن أفكر في أنني سأقضي الليل على الرصيف كان يستثير في نفسي شتى المخاوف . . ولكنه خوف قاس جاف. . . لم يكن أحد على استعداد لان يشفق علي. . . لم أكن استطيع ان اجد بشراً ألتجى اليه. . . وأن نظرة والدك الصامته تلقي رعباً جديداً في صدري والبرتقالة في يد أمك تبعث في رأسي النار. نظرة النيه والقلق وحشود الناس هي ذاتها والامهات الملتاعات وحراس الحدود الذين عبر عنهم كنفاني بجيش الانقاذ، هم نفسهم في مؤخرة اللوحة بثيابهم السود ورماحهم المرفوعة في وجه الذاهلين، يحاصرونهم من وراء وأمام ليسدوا طريق الرجوع على من اراده وتوجيه الذاهلين الذين اخذتهم المفاجأة الى حيث يراد لهم التوجه. إلا ان لوحة شموط تفتقر عن قصة كنفاني في ان هذه الاخيرة جعل الاب ينهار ويفكر بقتل نفسه وابنائها، فيما جعله شموط السند واليد القوية التي تحضن وتجمع، فحركة الاصابع فوق كتفي الولدين تكاد تنغرس فيهما لدرئ ما يمكن ان يحدثه الشتات من تمزق وفرقة وضياح. ورغم ما في قسمات هذا الاب من اسى وهرم (الاكتاف المحنية والعينين الغائرتين والفم المزموم) إلا انه بصر ولا يفرط ويستمر في لعب دوره الابوي الذي اوكلته اليه الطبيعة، دور الحامي والمؤازر ودارئ الخطر. وفي حين تغرق √أرض البرتقال الحزين√ في الغيبة والجنون فتنتهي والاب يرى خلاصه باشهار مسدس يريد ان يطلقه على نفسه واولاده، يضيئ لوحة شموط خلفية بيضاء رمز التفاؤل والامل بالمستقبل رغم كل السواد الذي يحيطها

ما يلفت في رسومات شموط اصراره على ابقاء المرأة في دورها التقليدي، فهي جميلة دائماً في ملمحها وفي قدها. قل أن نرى امرأة سميئة او قبيحة. وهي في معظم ما رسم، كي لا أقول كله، إما امأ أو حبيبية او جزءاً من حالة فولكلورية. لقد بحثت طويلاً عن امرأة كأم السعد المرآة التي تشققت يديها من العمل في تنظيف بيوت الاغنياء، التي تلحق بابنها الى المعركة، أو التي تشارك في المعركة على قدر طاقتها، ولكني لم اجدها. كما أنني بحثت عن √سعاد√، بطلة برقوق نيسان، الرفيقة الملتزمة، المناضلة الندية التي لا يقل ولا يتميز دورها عن دور الرجل فلم ار لها إلا رؤيا ضبابية كأن نستشف بعض تلك الملامح في لوحة √رنده√ أو √وجه فلسطيني√



والجدير بالقول ان تماهي الاعمال الفنية لا يغمط اي من هذه الاعمال حقها ولا يضيع خصوصيتها وأن مقالتي هذه لا تنتصر لعمل على آخر بل تهدف الى لفت الانتباه الى شيء جميل في ثقافتنا الجمعية. فنحن، الفلسطينيون، مهما باعدت بيننا المسافات والاعمار والاجناس الادبية وربما حتى الخلافات العقائدية يظل يجمعنا هم أساسي ورؤية واحدة. ورغم ذلك فنحن لسنا نسخاً كربونية، بل لكل عمل فني عندنا رؤيته وخصوصيته ولا يعيبه ان تماهى او تشابه مع أي عمل آخر

ويبقى اسماعيل شموط الفنان التشكيلي الكبير في فنه، وربما الرائد أيضاً، الذي نذر موهبته وصحته الجسدية في سبيل قضيته وقضية شعبه وما هذه المقالة الا تحية احترام وتقدير في ذكرى رحيله الذي يعد خسارة للفن والثقافتين العربية والعالمية

نجمه خليل حبيب
سدني استراليا
31 آب 2006

Spots Over Nu'man's Thoughts

Nu'man doesn't like loud whizzing aeroplanes. When he was a little boy, he used to hide in his mum's lap every time a crackling motor-bike passes the neighbourhood and he was the first to shrink in a corner or a closet when a sudden bombardment hits the neighbourhood.

Nu'man doesn't like to die, not because he only loves life, but because his death will break his mother's heart and cause her a deep sorrow. After his father's kidnapping, she wept for many years and dressed in full black, she covered her head with a thick black scarf and grew older very quickly. She even stopped loving him; she stopped coddling like before and stopped making his favourite meals. She became like Um Bashir's maid who just put the food on the table without cheerfully calling to hurry up or ask this or that to add more. She stopped eating chocolates for many years¹ and "tabooed" making cakes or Knafeh². It's true that they were available at Ammu Mansour's cake shop, but they weren't the same. He used to whisper in his mum's ear, when unexpected guests dropped by, not to offer what would be left from that cake. "I will get some from the shop mum," he would say.

Azza will be sad also, but not as sad as his mother. She will regret all the fights they had, she will regret accusing him to Amer when she caught him smoking secretly at the veranda. Amer went hard on him that day, he rebuked him harshly and cut his pocket money, so he stayed for weeks eating his sandwiches "sec" without a sip of Pepsi. Azza changed a lot after they had displaced from their house in the town to this big building in "Burj Elbarajneh"³. She started shouting at him every time he enters her room. She became spending more time in reading magazines that she hides under the bed if her mum suddenly entered the room. That day when he got mad of her and shucked off her magazine out the window, she said: "*Inshala tmout* I wish you die". She will remember this and weep bitterly.

He can't tell how much Randa will be sad, but sure she will regret every time she was tough on him and treated him haughtily. She rebuked him every time he got a low mark in his exams: "I am ashamed of you! You big arse. *Go through yourself in the see you dum*". It's true that he hated her for that, but it is also true that he was always proud of her. Every time a new teacher would ask him if Randa relates to him, he would say in full mouth: Randa is my sister. He imagined her crying bitterly and murmuring: "Forgive me "*habibi* (sweet heart) for all the bad things I did to you."

Amer could be the least to grieve his death. It will lessen his burden. This Amer has no heart, in his thirties and still has no fiancé or even a lover. Life to him is nothing but duties; he works like machine and finances the house since his father's death, but nothing more. He never talked to him about emotions or love or girls; he never taught him, like older brothers do, how to deal with his sexual frustrations. When he told him that he is going to join the Popular Front in "Hayy-Issilum" to defend this suburb

¹ During mourning period mourners stop eating sweets and stop cooking it in their houses

² A kind of sweet made of semolina cheese and syrup

³ During the civil war in Lebanon (1975-1990) many people were displaced from their houses. Many Palestinians and Muslims who were living in east Beirut were forced to move to west Beirut and the visa versa

against the Israel attack, he didn't show any passion; he didn't get angry nor he pressed his hand encouraging and blessing his decision. He stood speechless like a "Sphinx."

Could Ibtissam reveal their love story? Will she come to his funeral? Will she sit beside his mother and his two sisters Azza and Randa receiving consolation? He doubts it, Ibtissam fears her brother Ali. She used to mock saying: "Ali is above the tree."⁴

They will set the funeral ceremony at St Peter & Paul Church in Alhamra, Abu Maher will say an inspiring speech in his commemoration. On each stop his mother will sigh loudly and murmur passionate words. At the end they will bury him in The Martyrs Cemetery. Abu Ammar said all martyrs should be buried in The Martyrs Cemetery: Muslims and Christians. He didn't abide by the militants' beliefs; he said those people became Muslims by martyrdom. Nu'man loves Abu Ammar but he stays silent when his comrades in the Popular Front curse or mock him lest they think he is ignorant or naïve.

His coffin will be wrapped with the Palestinian flag and his friends will salute him with 21 gunshots. The church will be full of his Muslim friends and neighbours, some of them could be annoyed of the strong aroma that the priest spreads out of his censer or they will laugh at the strange words that penetrate the ceremony. Imad and Rasmi might make comments about these big yellow candles alight for no purpose in the middle of the day. One would say: I wish I had them; they will be enough to light the house for a full month.

While lifting up his coffin, woes will go louder. His mother will say: With peace my love. *Sallem* (say hello) to your father. Um Jamil will utter "*Zaghrouda*"⁵ and some one might follow up by the song: "Mother of the martyr be happy, all other sons are yours."

Oh! How much the death of a martyr is beautiful and sad. How nice are the words of the eulogy. How nice is the white marble tombstone with the words written in black or gold:

Here rests in peace, the Martyr Nu'man who died in defence of Beirut against the Israeli invasion, 1964 – 1982.

He felt the urge to weep, not because of what is going to happen to him, but because of this beautiful, like music, melancholy.

What would happen if they knew about those thoughts that went through his mind every now and then? Will they keep calling him The Martyr? If they knew that sometimes he regretted volunteering in this war, and when the danger was critical he wished that the leadership declare surrender, and that he wasn't really sick when the

⁴ A variation of the title of a very popular Arabic movie "My father is above the tree" which revolts against woman's submissions to male power in the Arabic family

⁵ A trilling cry of joy. Normally uttered in happy celebrations, but it also uttered when a youth or a martyr dies

Khaldeh Triangle battle took place. What Hani's parents would do if they learned that their son died, that day, because of his fake sickness? What could they say if they knew that he never liked reading revolutionary newspapers and magazines and he preferred over them the erotic sex ones, and that he used to buy Playboy Magazine with the money he could spare rather than buying Al-Hadaf or any other political magazine.

Nu'man felt happy because thoughts aren't like clothes. The dirty spots don't appear over them.

.....

When Abu Mojahed, accompanied with three of Nu'man comrades came to visit his mum, she didn't jump up with excitement to welcome them. She didn't ask how is Nu'man. She said with a bent head and eyes low to the ground:

There is no need to bother explaining....He visited me last night and said "good-bye Um Amer." He asked me not to be sad, not to dress up in black and not to stop making cakes and knafeh. He said my grief will make him very sad and will make his death a real death.

25 Aug. 06